توظيف السياق النبوي
لتحديد دلالة المشترك اللفظي

Employing The Prophetic Context To Determine
The Meaning Of Homonymy

شذى أحمد عبد المحسن العبد الكريم

الأستاذ المساعد بقسم التفسير والحديث

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الكويت -

Shatha Ahmed Abdel Mohsen Al Abdel Karim

Assistant Professor, Kuwait University -

College Of Islamic Studies

mishkdana@gmail.com

الملخص

تتناول هذه الدراسة توظيف الحديث النَّبَوِيّ للسياق لتحديد دلالة الْمُشْتَرَك اللَّفْظِيّ، وترجيح المعنى الأوفق لسياق الحديث والأظهر في تأدية معناه من غير غموض أو إيهام، وذلك من خلال الوقوف على بعض الشواهد الحديثيَّة التي وظّفت فيها هذه الكلمات. وأظهرت الدراسة أنَّ السياق النَّبَوِيّ له دور بارز ومؤثِّر في توجيه دلالة الْمُشْتَرَك اللَّفْظِيّ وتحديد معناه على وَفْقِ ضوابطَ دقيقةٍ للوصول إلى معاني الحديث ومقاصده، واشتمل البحث بعد المقدمة على المبحث الأول: فهم الحديث في ضوء قرينة السياق، وتضمن مطلبين، أولهما: مفهوم السياق وثانيهما: أهميَّة السياق في فهم النصوص وعناية الْمُحَدِّثِينَ به. ثم المبحث الثاني: ضوابط إعمال السياق. ثم المبحث الثالث: توظيف السياق النَّبَوِيّ لتحديد دلالة الْمُشْتَرَك، وفيه مطلبان: المطلب الأول: الْمُشْتَرَك لغةً واصطلاحاً، والمطلب الثاني: توظيف السياق النَّبَوِيّ لتحديد دلالة الْمُشْتَرَك اللَّفْظِيّ، ثم خُتِمَ البحث بخاتمة لخصت أهم النتائج التي توصَّلت إليها الدراسة.

الكلمات المفتاحيَّة:
دلالة، سياق، مشترك.

Abstract

This study tackles employing prophetic Ḥadīth of the context to determine the meaning of homonymy. It is also to prefer the meaning which suits well the context of the Ḥadīth and which expresses the meaning without any ambiguity or delusion. This can be done through dependence on some of the Ḥadīth evidence employed in these words. The study showed that the prophetic context plays a vital and influential role in directing the connotation of homonymy and determining its meaning according to accurate rules to get to the meanings and purposes of the Ḥadīth.

The thesis includes an introduction and the first topic: understanding the Ḥadīth in the light of the context presumption. It includes two requirements: first: the concept of context; second: the importance of context in understanding texts and how Ḥadīth scholars are concerned with it. The second topic includes the rules of using the context. The third topic provides how to employ the prophetic context to determine the meaning

of homonymy. It includes two requirements: first: linguistic and terminological meaning of the homonymy. The second requirement includes employing the prophetic context to determine the meaning of homonymy. Finally, it came up with a conclusion in which the most important results of the study are mentioned.

Keywords:
meaning – context – homonymy.

* * *

المقدّمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسَّلام على النَّبِيّ الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

موضوع البحث:

إنَّ دراسة السّياق محور رئيس من محاور علم الدلالة، ومن القواعد المهمَّة لفهم النصوص الشرعيَّة، فإنَّ نصوص الشريعة لا سبيل إلى فهم معناها فهماً صحيحاً يؤهّل لاستنباط الأحكام الشرعيَّة منها إلا بمعرفة المعاني التي وضعت الألفاظ لإفادتها. وقد أولى علماء الحديث المتن اهتماماً كبيراً كما كان للسند هذا الاهتمام أيضاً، وظهر ذلك من خلال العناية بوضع القواعد والشروط الدقيقة لقَبُول متن الحديث؛ مما ساعدهم على ضبط ألفاظ السُّنَّة وتحريرها، ومن الأمثلة الدالَّة على مدى عناية هؤلاء العلماء بضبط ألفاظ الحديث العلوم التي انبثقت عن علم الحديث، ومنها معرفة الْمُشْتَرَك، فإنَّه يوجد في اللغة أن يدل اللفظ على معنيَيْنِ أو أكثر، وسياق الحديث له أثر كبير في تحديد المعنى المراد ووجه الاستعمال والحكم الناتج منه. والداعي لهذه الدراسة إبراز كمال البيان النَّبَوِيّ في تلك اللَّفْظَة الْمُشْتَرَكة، ودور السياق في توجيه دلالتها ودور القواعد الحديثيَّة في الفهم السليم، وأنها جُنَّة من الوقوع في الخطأ ودليل إلى الفقه الصحيح.

مشكلة البحث:

قلَّة الدراسات الحديثيَّة التي تناولت قرينة السياق وأثرها في تحديد دلالة الْمُشْتَرَك اللَّفْظِيّ، وبما أنَّ الحديث النَّبَوِيّ هو أحد الحجج القاطعة وبه تثبت الأحكام إذ نأمل أن يسهم هذا البحث في فهم ألفاظه ﷺ ومدلولاتها، ومن ثمّ الفهم الصحيح للسُّنَّة النَّبَوِيّة؛ لهذا جاءت هذه الدراسة لتجيب على بعض الأسئلة ذات الصلة؟

- ما مفهوم السياق؟
- ما أهميَّة السياق وعناية الْمُحَدِّثين به؟
- ما ضوابط أعمال السياق في السُّنَّة النَّبَوِيّة؟
- ما مفهوم الْمُشْتَرَك اللَّفْظِيّ؟
- ما أثر السياق النَّبَوِيّ في تحديد دلالة الْمُشْتَرَك اللَّفْظِيّ؟

أهميَّة البحث:

١. - قلَّة الدراسات المتعلقة بالْمُشْتَرَك اللَّفْظِيّ في الحديث النَّبَوِيّ ودلالة السياق عليه وأثره في فهم الحديث وتوجيه معناه، بل إنّ مثل هذه الدراسات تكاد تكون قليلة جدّاً .

٢- الرغبة في خدمة السُّنَّة النَّبَوِيّة بتمييز الْمُشْتَرَك اللَّفْظِيّ ورفع ما يطرأ من غموض واشتباه فيه.

٤- فهم الأحاديث النَّبَوِيّة هدف أسمى وغاية عظمى والسبيل إليه طويل وشائك لا تؤمن فيه العثرة والزلة.

٥- معرفة الضوابط التي يرجع إليها لفهم النصوص فهماً سليماً، وتكون بمنزلة الميزان الذي يعرف به الفهم المقبول من المردود.

الدراسات السابقة:

١- السياق وأثره في فهم الحديث النَّبَوِيّ دراسة نظريَّة تطبيقيَّة، (٢٠١٣) محمد عبدالله السوالمة (أطروحة دكتوراه)، تناول بشكل موسع السياق لغةً واصطلاحاً وأقسامه وأهمّيته والضوابط التي تجب مراعاتها عند الأخذ بالسياق في السُّنَّة النَّبَوِيّة مع ذكر الأمثلة التطبيقيَّة من خلال شروح الحديث والشبهات الواردة على الأحاديث الصحيحة والمترتبَّة على عدم فهم سياق الأحاديث فهماً صحيحاً .

٢- الاشتراك اللَّفْظِيّ وأثره في فهم النصوص الشرعيَّة، (٢٠١٨) البكريّ الطيّب الشيخ الهادي، مصطفى، بحث منشور في مجلَّة كليَّة التربيَّة الأساسيَّة للعلوم التربويَّة والإنسانيَّة، حزيران العدد ٣٩ الجزء الأول. وتوصلت الدراسة إلى أنَّ الْمُشْتَرَك اللَّفْظِيّ واقع في لغة العرب كما هو واقع في بالاستقراء في الكتاب والسُّنَّة، وأنَّ من أسباب وجود الألفاظ الْمُشْتَرَكة في اللغة اختلاف القبائل التي تستعمل الألفاظ الدالة على معانٍ وأن يوضع اللفظ على سبيل الحقيقة لمعنى ثم يستعمل في غير ما وضع له اصطلاحاً أو مجازاً ثم يشتهر هذا اللفظ في المعنى الاصطلاحي أو المجازي.

منهج البحث:

المنهج الاستقرائيّ التحليليّ التطبيقيّ.

خُطَّة البحث:

اقتضت طبيعة الدراسة تقسيمها إلى أربعة مباحث وخاتمة على النحو الآتي:

المبحث الأول: فهم الحديث في ضوء قرينة السياق، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: مفهوم السياق.

المطلب الثاني: أهميَّة السياق في فهم النصوص وعناية الْمُحَدِّثين به.

المبحث الثاني: ضوابط إعمال السياق.

المبحث الثالث: توظيف السياق النَّبَوِيّ لتحديد دلالة الْمُشْتَرَك، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الْمُشْتَرَك لغةً واصطلاحاً.

المطلب الثاني: توظيف السياق النَّبَوِيّ لتحديد دلالة الْمُشْتَرَك اللَّفْظِيّ.

ثمَّ الخاتمة والمراجع.

* * *

المبحث الأول
فهم الحديث في ضوء السياق

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف السياق

أ: السياق لغة: وردت مادَّته في اللغة العربيَّة للدلالة على معنى السرد والسلسلة والإيراد[١] ومجيء الشيء متتابعاً.[٢] تقول العرب ساق الإبل سوقاً وسياقاً إذا تتابعت وتقاودت[٣]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ [مَرْيَم: ٨٦].

وعلى هذا فسياق الكلام تتابعه وترابطه وأسلوبه الذي يجري عليه ويوصل إلى معانٍ مقصودة.

ب: السياق اصطلاحاً:

الناظر في كتب علوم المتقدّمين لا يجد ذكراً لمصطلح (السياق) ما يؤكّد تأخُّر ظهور هذا المصطلح كعلم مستقلّ له حدوده وضوابطه، مع أنهم يصرّحون به أحياناً ويعملون بمقتضاه، لهذا تفاوت العلماء في ضبط مفهومه.

فعرَّفه الرازي(٦٠٦هـ): «كل ما يكتنف اللفظ الذي يُرَاد فهمه من دوال أخرى سواء كانت لفظيَّة كالكلمات التي تشكّل

(١) التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، ٢٧/٤.
(٢) ابن منظور، لسان العرب، مادة (سوق): ٣/ ٣٥٣-٣٥٦.
(٣) المعجم الوسيط (باب القاف): ٢٥٦/٣.

مع اللفظ الذي نريد فهمه كلاماً واحداً مترابطاً، أو حاليَّة كالظروف والملابسات التي تحيط بالكلام، وتكون ذات دلالة في الموضوع».(١)

وعرَّفه عزالدين ابن عبدالسلام(٦٦٠هـ): «السياق يرشد إلى تبيين المجملات وترجيح المحتملات وتقرير الواضحات، وكلّ ذلك بعرف الاستعمال».(٢)

وقال ابن دقيق العيد(٧٠٢هـ) «السياق والقرائن دالة على مراد المتكلّم من كلامه».(٣)

وقد حاول بعض المعاصرين وضع حدٍّ لتعريف السياق ولعلَّ من أحسنها أنَّه: «بناء نصّي كامل من فقرات مترابطة في علاقته بأي جزء من أجزائه، أو تلك الأجزاء التي تسبق أو تتلو مباشرة فقرة أو كلمة معينة، ودائماً ما يكون السياق مجموعة من الكلمات وثيق الترابط بحيث يلقي ضوءاً -لا على معاني الكلمات المفردة فحسب- بل على معنى وغاية الفكرة كاملةً».(٤)

وعرَّفه إدريس حمادي بقوله: «مفهوم السياق يشمل كافَّة القرائن التي تُسْهِم في عمليَّة الفهم لُغَويَّة كانت أمّ غير لُغَوِيَّة».(٥)

ومن خلال هذه التعريفات نرى أنَّ السياق هو جوهر المعنى المقصود في أيّ بناء نصّيٍّ من ارتباط الكلام بالسابق واللاحق في أسلوب الخطاب.(٦)

المطلب الثاني: أهميَّة السياق في فهم النصوص وعناية الْمُحَدِّثين به

يكتسب السياق أهميَّة كبيرة في فهم النصوص، وهذا ما تفطَّن له العلماء حيث بيَّنوا جوانب عديدة يتوقَّف إدراكها عليه منها:

- معرفة المراد من النَّصّ، فدلالة السياق تحدِّد المعنى وتفرّق بين معاني الْمُشْتَرَك اللَّفْظِيّ، وتحدِّد بشكل دقيق دلالة هذه الألفاظ.(٧)

-كما أنَّ السياق يدلّ على المجمل والقطع بعدم احتمال غير المراد وتخصيص العامّ وتقييد المطلق وتنوع الدلالة، وهو من أعظم القرائن الدالَّة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره وغالط في مناظرته.(٨)

- التمييز بين الألفاظ المترادفة (الألفاظ ذات المعنى الواحد بأسماء كثيرة(٩) ، وذلك بملاحظة السياق والقرائن التي ترد معها فيفرد لها معنى معين دون غيره ويُحدّد للفظة دون

(١) المودن، السياق: نظريَّة أصوليَّة فقهيَّة، ص١٥٠.
(٢) السلمي، عزالدين عبدالعزيز بن عبدالسلام، الإمام في بيان أدلة الأحكام: ٣٠/١.
(٣) ابن دقيق العيد، إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام: ٢١/٢.
(٤) فتحي، معجم مصطلحات الأدبيَّة، ص: ٢٠١-٢٠٢.
(٥) حمادي، الخطاب الشرعيّ وطرق استثماره، ص: ١٤٦.
(٦) صائمة، نازش، أثر السياق في الجمع بين الروايات الحديثيَّة للموضوع الواحد.
(٧) الجنابي، ظاهرة الْمُشْتَرَك اللَّفْظِيّ ومشكلة غموض الدلالة، ص٤٠٠-٤٠١.
(٨) ابن القيم، بدائع الفوائد: ٩/٤-١٠.
(٩) التعريفات: ص: ١٩٩.

نظيراتها[١]، ويؤتي المعنى من الجهة التي هي أصحّ لتأديته، ويختار له اللفظ الذي هو أخصّ به وأكشف عنه وأتمّ له وأحرى بأن يكسبه نُبلاً ويظهر فيه مزيَّة.»[٢]

- الترجيح عند الاختلاف، فمن خلال دراسة المجال التداولي للنصّ وما يحيط به من ظروف يستفاد منه على الوجه الراجح لا المرجوح المحتمل.

عناية الْمُحَدِّثين بالسياق يتمثل في:

- تجلية الغموض عن بعض الألفاظ الغريبة: وهي التي لا يمكن شرحها وتفسيرها إلا ضمن السياق الذي ترد فيه، وأجود ما يفسر الألفاظ الغريبة في الحديث ما جاء مفسّراً في سياق بعض روايات الحديث.[٣]

- الكشف عن مبهمات المتن: تتبع الحديث الواحد في سياقاته يعين على تعيين المبهم.

- الوقوف على سبب ورود الحديث، وهذا له أثر كبير في بيان معنى الحديث.

- إدراك المحذوف من كلمة أو حرف أو جملة وهي مراده، وذلك عندما يتصرف الراوي فيختصر الحديث والسياق يبين ذلك ويوضح المقصود من الكلام.

- تبيين ما أُجْمِل، فتتبع الحديث الواحد في سياقاته يظهر الرواية المطولة التامَّة من المختصرة.

- التمييز بين الحديث المروي باللفظ والمروي بالمعنى، ويظهر هذا في جمع طرق الحديث وسبر رواياته، فالحديث إذا تعدَّدت طرقه واتفقت ألفاظه دلّ على أنَّه مروي باللفظ، وأمَّا إذا اختلفت ألفاظه فالغالب أنَّه مروي بالمعنى.

- الترجيح بين المعاني المحتملة في رواية، فالسياق يعين على الترجيح بين الروايات، فيحدّد المعنى الراجح على المرجوح، وهذا محل دراستنا.

- الوقوف على الجزم في حال الرواية على الشكّ، فمقابلة الروايات وعرض بعضها على بعض هو الضابط المعتمد في درء الشكّ، سواء كان الشكّ في ثبوت الحديث عن النَّبِيّ ﷺ، أو شكّ الراوي بين التحديث والعنعنة، أو شكّ الراوي بين العنعنة والسماع، أو الشكّ في السماع من الشيخ أم عنه بواسطة أو الشكّ في تعيين اسم الراوي، أو الشكّ في تعيين اسم أبي الراوي أو الشكّ بين صحابيّين، أو الشكّ في إبهام السند[٤] فالألفاظ الدالَّة على الشكّ كثيرة ومتنوّعة والسياق يبين ذلك ويوضّحه.

- معرفة علل الحديث، من خلال جمع طرق الحديث والنظر في اختلاف رواته واعتبار

(١) الجنابي، عيدان، جدليَّة السياق والدلالة في اللغة العربيَّة النَّصّ القرآني أنموذجاً، ص: ٢٧.
(٢) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: ٣٠-٣١.
(٣) فتح المغيث، ص: ٣٢٥.
(٤) د. إبراهيم، هتيمي أحمد، بدوي، د. سامي عواد، الشكّ من الراوي وأثره في التعليل «دراسة تطبيقيَّة في علل الدار قطنيّ» ١١-١٦.

مكانتهم في الحفظ ومنزلتهم من الإتقان[١]، ويستعان بالسياق على إدراكها بتفرُّد الراوي أو مخالفته غيره له مع قرائن تنضم إلى ذلك.[٢]

- كما أنَّ السياق هو الفاصل للتمييز بين الحديث النَّبَوِيّ والحديث القدسيّ: فأحياناً الراوي يسوق الحديث وينسبه إلى النَّبِيّ ﷺ لفظاً ومعنى والسياق هو الفاصل في ذلك.

- استنباط الحكم الفقهيّ عند وقوع التوهُّم، فكما بيَّنَّا سابقاً فالسياق طريق إلى بيان المجملات وتعيين المحتملات وتنزيل الكلام على المقصود منه.

- والدور الأكبر للسياق يتمثّل في حسم الخلاف بين الْمُحَدِّثين والفقهاء، فالْمُحَدِّثون يجمعون كل طرق الحديث وينقدون سياقاتها كلّها من أجل توجيهه توجيهاً سليماً، فهم ينطلقون من النَّصّ لا من الحُكم، أمَّا الفقهاء فينطلقون من الحكم الفقهيّ لا من النصّ.

إنَّ عناية الْمُحَدِّثين بالسياق يدلّل على أهميته ودوره في كشف المعنى المراد، والمقصود من كلامه ﷺ.

* * *

المبحث الثاني
ضوابط إعمال السياق

الحديث الشريف له قواعده وضوابطه الخاصَّة التي تعين على تسديد الفهم وعدم جنوحه عن الصواب، وراعى شراح الحديث القواعد الشرعيَّة في شرحهم للأحاديث كما استعانوا بها في فهم معانيها وتوجيه دلالاتها.

والقواعد التي يجب مراعاتها تبدأ باللغة العربيَّة، فشرح الحديث يراعى فيه قواعد اللغة العربيَّة وأساليب العرب في البيان. واستعمال اللفظة الواحدة يختلف من سياق لآخر فيأتي دور جمع طرق الحديث للنظر في القرائن الأخرى الكاشفة التي ترافق اللفظة في السياقات، وذلك لأنَّ روايات الحديث قد تختلف كاملاً أو مختصراً وتفصيلاً وإجمالاً، وما أُبْهِم في رواية قد يُفسَّر في رواية أُخْرى وما طُوِيَ ذكره في رواية قد يأتي ذِكْرُه في رواية أُخرى[٣]، والحديث إذا لم تُجْمَع طرقه لم يُفْهَم، ولأنَّ الحديث يفسّر بعضُه بعضاً، ويدخل في هذا الباب معرفة أسباب ورود الحديث؛ لأن ذلك يعين على فهم مراد الشارع، لأنَّ بعض النصوص سيقت لأسباب خاصَّة أو ارتبط بعلَّة معينة منصوص عليها في الحديث، أو مستنبطة منه، أو مفهومة من الواقع الذي سيق فيه النصّ.

(١) نصَّ عليه الخطيب، مقدمة ابن الصلاح: ص: ١٩.
(٢) المرجع السابق.
(٣) الرحيلي، منهجيَّة فقه السُّنَّة النَّبَوِيّة ص: ٦٣.

ودين الله محفوظ من التعارض والتناقض، فلا يوجد دليلان صحيحان من حيث الثبوت صريحان من حيث الدلالة يناقض أحدهما الآخر مناقضة تامَّة بحيث يتعذَّر الجمع والترجيح بينهما بحال من الأحوال، وأسباب وقوع التعارض بين الأحاديث باعتبار العموم والخصوص، وباعتبار تباين الأحوال، وباعتبار أداء النَّقَلة.

والقول بالتناقض ناتج إمَّا من عدم المعرفة بعلم الحديث، وإمَّا من عدم الفهم وضعف الفقه في حقيقة المراد بالنَّصّ. وقد اتَّبَع الْمُحَدِّثون قواعد لدفع التعارض منها: قاعدة الجمع، وقاعدة النسخ، وقاعدة الترجيح، ومتى أزيل الإشكال في فهم الحديث النَّبَوِيّ يفهم الراوي والمتلقّي والسامع ما فيه، ويزول التنازع بين الرواة، ويبعد الشبهة التي يريدها أعداء الإسلام أن تكون في الحديث.

ومعرفة الناسخ والمنسوخ من الضوابط المعتبرة التي اهتمَّ بها العلماء، واعتنى به الْمُحَدِّثون بشكل خاصٍّ باعتباره وسيلة من وسائل دفع التعارض بين الأحاديث وفي الاهتداء إلى صحيح الأحكام، وبخاصَّةٍ إذا ما وجدت أدلة متعارضة لا يندفع التعارض بينها إلا بمعرفة سابقها من لاحقها وناسخها من منسوخها.[١]

والوقوف على سبب ورود الحديث، فمعرفة سبب إيراد الحديث تعين على فهمه، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب،[٢] إذ يكون لفظ الحديث عامّاً أو خاصّاً، أو يكون ظاهره موهماً معنًى غير مراد، فبمراعاة السياق الذي قيل فيه الحديث ومراعاة الأحوال والظروف يسدّد الناظر في تنزيله على المعنى الصحيح، فيصدق عليه أنه تفسير للسُّنَّة بالسُّنَّة، وهذا أعلى مراتب الفهم للحديث وأبعدها عن الخطأ.

وبيان غريب الحديث، وهو ما وقع في متون الأحاديث من الألفاظ الغامضة البعيدة من الفهم لقلَّة استعمالها[٣]، أو كان اللفظ مستعملاً بكثرة، ولكن في مدلوله دقَّة، احتيج إلى النظر في الكتب المصنفة في شرح معاني الأخبار وبيان المشكل منها[٤]، وهو فنٌّ مهمٌّ والخوض فيه صعب، إذ فهم الحديث أحياناً متوقف على ضبط اللفظ وفهمه.

والعناية بالغريب تشمل أيضاً الاهتمام بإعراب الحديث وعلم البلاغة، وقد وحوت أحاديث رسول الله ﷺ صنوف البلاغة والفصاحة وكانت من أبرز دلائل نبوته ﷺ.

وقد أشار أهل العلم إلى مسألة دقيقة جدّاً هي أنه قد تختلف روايات الحديث الواحد اختلافاً يؤدّي أحياناً إلى أن يُظَنَّ أنَّ الروايتين مختلفتان، ويكون هذا الظنُّ مخالفاً لواقع الأمر، فقد تكون الروايتان تخبران عن حادثة معينة

(١) الزرقاني، مناهل العرفان: ١٧٤/٢.

(٢) ابن تيميَّة، مقدمة في أصول التفسير، ص: ٤٧.
(٣) ابن الصلاح، مقدمة ابن الصلاح، ص: ٢٧٢.
(٤) ابن حجر، نزهة النظر، ص: ٩٦.

واحدة، ولكن اختلاف ألفاظ الرواة في نقل الرواية واقتراب بعضهم من اللفظ الأول لرواية الحادثة وابتعاد بعضهم عنه بما يتضمنه هذا الابتعاد من تغيير زمان الحادثة، أو مكانها، أو صاحبها، أو سياق ما جرى ونحو ذلك فيوهم بتعدد الواقعة.(١)

وآخر هذه القواعد تفسير النصوص على ضوء مقاصد الشريعة، وإعمال المقاصد في فهم النصوص من أدق المسائل وأخطرها، لذا فإنَّه لا يؤخذ بحرفيَّة النصوص دون ربطها بالمعاني والغايات. قال ابن القيم: «فمن عرف مراد المتكلّم بدليل من الأدلَّة وجب اتباع مراده بأي طريق كان عمل بمقتضاه سواء كان بإشارة، أو كتابة، أو إيماء، أو دلالة عقليَّة، أو قرينة حاليَّة، أو عادة مطّردة لا يخلّ بها».

ممَّا سبق أقول: إنَّ فهم حديث رسول ﷺ لا بد أن يكون مقيداً بالضوابط والأُسس التي وضعها العلماء، وإهمال أساس من هذه الأُسس يحدث تفرُّقاً واختلافاً وتضارب العقول والأهواء، والوقوع في البدع والضلالات.

فالقضيَّة قضيَّة منهجيَّة في المقام الأول، ولا بد من مراعاتها ضمن منظومة من الضوابط والمعايير، فهذا أحرى بالصواب، وفيه حسم مادة الابتداع والضلال في فهم النصوص وتأويلها.

المبحث الثالث
توظيف السياق النبوي لتحديد دلالة المشترك اللفظي

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الْمُشْتَرَك لغةً واصطلاحاً

الْمُشْتَرَك لغةً: ذكر الخليل من معاني هذه المادة: (الشِّرْكَة: مخالطة الشريكين، واشتَركنا بمعنى تَشارَكنا).(٢)

وقال ابن فارس (الشركة: وهو أن يكون الشي بين اثنين لا ينفرد به أحدهما، ويقال: شاركت فلاناً في الشيء إذا صرت شريكه).(٣)

والأصل في اللغة أن يكون كلّ لفظ له معنى دالّ عليه، فإنَّه قد يوجد في اللغة أن يدلّ اللفظ على معنيَينِ، وقد أشار علماء اللغة إلى هذا الأمر بقولهم: (اتفاق اللَّفْظِيّن واختلاف المعنيَينِ).(٤)

اصطلاحاً: عرّفه التهانوي بقوله: (الاشتراك على معنيَينِ: أحدهما كون اللفظ المفرد موضوعاً لمفهوم عامّ مشترك بين الأفراد، ويُسَمَّى اشتراكاً معنويّاً، وثانيهما كون اللفظ المفرد موضوعاً لمعنيَينِ معاً على سبيل البدل من غير ترجيح ويُسَمَّى اشتراكاً لفظيّاً، وذلك اللفظ يُسَمَّى

(١) البكري، تعدُّد الحادثة في روايات الحديث النَّبَوِيّ دراسة تأصيليَّة نقديَّة، ص: ٩.

(٢) الخليل الفراهيدي، كتاب العين، (شرك) : ٣٢٧/٢.
(٣) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: ٢٦٥/٣.
(٤) سيبويه، كتاب سيبويه: ٢٤/١.

مشتركاً لفظيّاً).[١]

وجاء في المعجم الوسيط: (ولفظ الْمُشْتَرَك: له أكثر من معنى).[٢]

المطلب الثاني: توظيف السياق النَّبَوِيّ لتحديد دلالة الْمُشْتَرَك اللَّفْظِيّ

دلالة اللفظ هو ما يقتضيه اللفظ عند اطلاقه[٣]، وبه يُفْهَم قصد المتكلّم، وهو من المباحث المهمَّة التي اعتنى بها العلماء في كتبهم وشملوها بالدراسة، والتحليل، والدقَّة، والنظر.

ودلالة الألفاظ النَّبَوِيّة ومعرفتها أمر عظيم، فهي المدخل إلى عمق النَّصّ وجوهره والوسيلة إلى فهمه وتحقيق الغاية من دراسته، فمِن ثَمَّ كان لا بد من دراسة السياق، حيث إنَّ السياق الذي يوجد به اللفظ يكون له دور جوهري في تحديد المعنى.

والمعاني تنقسم إلى حقٍّ وباطل، فإن كان المعنى حقّاً جاز حمل اللفظ عليه بشرط أن يكون اللفظ مستعملاً في ذلك المعنى ودلَّ السياق على مراد المتكلم أمَّا إن كان مجرد صالح لأن يُفَسَّر به اللفظ وليس مقصود المتكلّم لم يجز، لأنَّ دلالة اللفظ على المعنى مقصودة عنده.[٤]

ولما كان اللفظ الواحد قد يختلف من قبيلة لأخرى ومن بلد إلى بلد ومن عصر إلى عصر، فتجد هؤلاء يتكلَّمون بلفظ وله معنى وآخرين يتكلَّمون باللفظ وله معنى آخر.

ولما كانت السُّنَّة النَّبَوِيّة المصدر الملازم للقرآن، وفهم عباراته ﷺ أهميَّة بالغة، قام العلماء بوضع شروط لازمة لضبط وتحديد مراده ﷺ ليستطيع العلماء بعد ذلك التعامل معها، والتي منها:

١- معرفة عادته ﷺ في الخطاب وأسلوبه في البيان، وذلك باستقراء مختلف استعمالات الألفاظ ودلالتها على المعاني ومعرفة الوجوه والنظائر في كلامه.

٢- معرفة السياق الذي ورد فيه اللفظ حتى يمكن تحديد مراده ﷺ وذلك بالنظر إلى القرائن الحاليَّة واللَّفْظِيَّة.

والْمُشْتَرَك اللَّفْظِيّ من المسائل التي شغلت الدارسين للسُّنَّة النَّبَوِيّة، إذ استعمال اللفظ في أكثر من معنى يوقع في اللبس فلا يدري هل اللفظ موضوع للقدر الْمُشْتَرَك بين المعنيين أم هو موضوع على الحقيقة لما يختص به كل واحد منهما، أم هو موضوع حقيقة في أحدهما ومجازاً في الآخر؟[٥]

(١) التهانوي، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ٢٠٢/٠١.
(٢) المعجم الوسيط: ص٤٨٠.
(٣) المعجم الوسيط مادة (دلّ) : ٢٩٤/١.
(٤) عقيلي، إبراهيم، تكامل المنهج المعرفي عند ابن تيميَّة، ص: ١١٨.
(٥) المرجع السابق.

فالكلمة تكتسب مدلولها ويختلف معناها وَفْقاً للسياق الذي وردت فيه، وقد يتّحد مدلولها ويختلف معناها، وذلك وَفْقاً للسياق الذي وردت فيه، أو وَفْقاً للأحوال المحيطة بالنصّ(١).

ولأجل الوقوف على هذه الظاهرة اللُّغويَّة نتناول بعض الشواهد النَّبَوِيّة ليتجلَّى لنا كيف وظَّفَت السُّنَّة السياق في تحديد دلالة معاني الألفاظ في المواضع التي جاءت فيها ودفعت التوَهُّم واللبس عن معناها المراد في ذلك الموضع.

أولاً : أن يكون اللفظ مستعملاً في لهجات العرب بمعانٍ مختلفة:

(نطى)

أنطيت: لغة في أعْطَيت، والأنْطَاءُ: المعطيات وفي الحديث (وإنّ مَالَ اللهِ مسئولٌ ومُنْطًى، أي مُعْطًى).

والإنطاء: لغة في الإعْطَاء، وقيل: الإنْطَاء الإعْطَاءُ بِلُغَة أهل اليمن(٢)، ومنه حديث (لا مانِعَ لِما أنْطَيْتَ، ولا مُنْطِيَ لما مَنَعْت)(٣).

فقد شرَّف النَّبِيّ ﷺ هذه اللغة(٤) الحميريَّة باستخدامها، جاء في حديث عطيَّة السعديّ -رضي الله عنه- الذي أخرجه البيهقي في السنن أنَّه قدم على النَّبِيّ ﷺ في وفد من قومه من ثقيف، قال: فلمَّا دخلنا على النَّبِيّ ﷺ، فكان فيما ذكروا أن سألوه، فقال لهم: «هل قدم معكم أحد من غيركم؟» قالوا: نعم، قدم معنا فتًى منَّا خلَّفناه في رحلنا. قال: «فأرسلوا إليه». قال: فلمَّا دخلت عليه وهم عنده استقبلني فقال: «إنَّ اليدَ المنطيةَ هي اليد العليا والسائلة هي السفلى، فلا تسأل فإنَّ مالَ اللهِ مسؤولٌ ومنطيّ».

وفي رواية: قدمت على رسول الله ﷺ، وكنت أصغر القوم. ثم ذكر الحديث، فقال: «مَا أَغْنَاكَ اللهُ لَا تَسْأَلِ النَّاسَ شَيْئاً فَإِنَّ يَدَ الْمُنْطِيَةِ الْعُلْيَا وَإِنَّ الْيَدَ السُّفْلَى هِيَ الْمَنْطَاةُ، وَإِنَّ مَالَ اللهِ لَمَسْئُولٌ وَمَنْطِيٌّ «قَالَ: فَكَلَّمَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بِلُغَتِنَا.(٥).

والمنطيَّة: المنفقة أو المتعففة، والمنطاة: الآخذة(٦) أو السائلة، وجاءت مفسّرة في حديث البخاريّ: «اليد العليا خير من اليد السفلى، فاليد السفلى هي المنفقة والسفلى هي السائلة»(٧) وذلك أنَّ أحسن ما يُفَسَّر به الحديث ما جاء مفسَّراً في بعض طرقه الأخرى.

ومن دلالة الحديث التي عرفت بالسياق:

تربيَّة النَّبِيّ ﷺ أصحابه على المكارم من عزَّة النفس والتعفُّف والترفُّع عن السؤال.

(١) عبد اللطيف، محمد حماسة، النحو والدلالة، ص: ٣٣، ٣٦.

(٢) ابن منظور، لسان العرب: ٢٣٢/١٥.

(٣) البيهقيّ، الدعوات الكبير، ١ / ٢٧٩، حديث رقم: ١٩٣.

(٤) الزمخشريّ، الفائق في غريب الحديث والأثر: ٤٥٤/١.

(٥) البيهقيّ، السنن الكبرى: ٣٣٢/٤ حديث رقم (٧٨٨٤)، الحاكم، المستدرك على الصحيحين: ٣٦٣/٤.

(٦) القسطلاني، إرشاد الساري: ٧/ ٣٦، ابن حجر، فتح الباري: ٣/ ٣٥٠.

(٧) البخاري -كتاب الزكاة -باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى.

ومن عادة النَّبِيّ ﷺ لما كانت الألسنة مختلفة بعضها عن بعض، يخاطب كلّ أمة بلسانها ويحاورها بلغتها، حتى كان أصحابه إذا استشكل عليهم الكلام يسألونه عن شرح كلامه وتفسير قوله[١].

وأنَّ هناك فروقاً بين اللغة الحميريَّة ولغة قريش وهو ما ظهر جليّاً عند بيان كلمة (نطى)، ومعناها عند لغة حمير الإعطاء وهو ما اتَّفق مع السياق النَّبَوِيّ.

٢- الاستعمال المجازي:

(يد)

قال ابن منظور تطلق (اليد) في اللغة على الكفّ، وقال أبو إسحاق: من أطراف الأصابع إلى الكفّ، والجمع أيد، وأياد جمع الجمع.[٢]

وفي اللغة على معانٍ متعددة منها: النعمة والإحسان تصطنعه والِمنّة والصّنِيعَةُ والقوَّة.

وجاءت في السُّنَّة النَّبَوِيّة بمعانٍ أُخَر منها العطاء والصدقة، في حديث عائشة -رضي الله عنها- قوله ﷺ لنسائه: «أسرعكُنَّ لحوقاً بي أطولكُنَّ يداً «قالت: فكن يتطاولن أيتهنّ أطول يداً، قالت: فكانت أطولن يداً زينب، لأنها كانت تعمل بيدها وتصدَّق[٣]؛ كنى بطول اليد عن العطاء والصدقة. قال الهروي: يقال فلان طويل اليد وطويل الباع إذا كان سمحاً جواداً.[٤]

(فكنَّ يتطاولنَ أيتهنَّ أطول يداً) أي يتقايسن، وعند البخاري (فأخذوا قصبة يذرعونها) أي يقدرونها بذراع كل واحدة منهنّ، وفعلنَ ذلك، لأنهنَّ فهمن من لفظ المعنى الحقيقي، وهي (اليد الجارحة) والطول على حقيقته، وكانت سودة -رضي الله عنها- أطولهن يداً جارحة، فكانت تظنّ أنها تلك حتى انكشف ذلك بموت زينب -رضي الله عنها-، فَعلِم أنما أراد طول اليد بالصدقة يعبر به عن الجود والكرم.[٥]

ومما يؤيّد أنَّ أسرع نسائه لحوقاً به هي زينب -رضي الله عنها-، ما جاء عند الحاكم في المناقب من مستدركه عن عائشة: «قال رسول الله لأزواجه: أسرعكُنَّ لحوقاً بي أطولكنَّ يداً، قالت عائشة: فكنا إذا اجتمعنا في بيت أحدانا بعد وفاة رسول الله نمد أيدينا في الجدار نتطاول فلم نزل نفعل ذلك حتى تُوُفِّيَت زينب بنت جحش، وكانت امرأة قصيرة ولم تكن أطولنا، فعرفنا حينئذ أنَّ النَّبِيّ ﷺ إنّما أراد بطول اليد الصدقة، وكانت زينب امرأة صناعة باليد وكانت تدبغ وتخرز وتصدق في سبيل الله.»

وهي رواية مفسّرة ومبيّنة مرجّحة في أمر زينب[٦].

(١) عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى: ١٧٣/١.
(٢) ابن منظور، لسان العرب: ٤١٩/١٥.
(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري - كتاب الزكاة،، ومسلم - كتاب فضائل الصحابة، ٣٣٠/٨، ح(٢٤٥٣) واللفظ له.
(٤) المازري، المعلم بفوائد مسلم، ١٥٣/٣.
(٥) الأبي، إكمال إكمال المعلم: ٣٣٠/٨.
(٦) ابن حجر، فتح الباري: ٣/ ٣٣٧.

والخلاف هل هي سودة أم زينب رضي الله عنهما؟

فالصحيح أنها زينب كما جاء عند مسلم من طريق عائشة بنت طلحة عن عائشة -رضي الله عنها-بلفظ « فكانت أطولنا يداً زينب لأنها كانت تعمل تتصدق» وهذا السياق لا يحتمل التأويل، وإن كنَّ حملنَ طول اليد على ظاهره، ثمَّ علِمْنَ بعد خلافه، وأنه كناية عن الصدقة.

والسياق دلَّنا على أمور منها:

جواز إطلاق (اللفظ الْمُشْتَرَك) بين الحقيقة والمجاز بغير قرينة، وهو لفظ «أطولكُنَّ»[١] إن لم يكن محذوراً، وجاز للنّبيّ ﷺ الخروج من المعنى الحقيقي إلى المعنى المجازي؛ لأنَّ السؤال عن الآجال، وهذه أمور غيبيَّة لا تعلم إلا عن طريق الوحي أجابهن بلفظ غير صريح وأحالهنّ على ما لا يتبين إلا بآخر.

وأن الحكم للمعني لا كما اقتضاه ظاهر اللفظ، والدليل أنَّ النساء فهمن من طول اليد الجارحة، وإنَّما المراد بالطول كثرة الصدقة[٢].

بيان وهم الراوي في تسمية (سودة) أنها اسرعهنّ لحوقاً به، وإنما هي زينب كما رواه مسلم.

٣- الدلالة الجديدة للفظ مستفادة من نصّ في الكتاب أو السُّنَّة الصحيحة:

(الوحي)

جاء في معجم لسان العرب (الوحي) بمعنى: الإشارة والكتابة والرسالة والإلهام والكلام الخفي، وكل ما ألقيته إلى غيرك، ويطلق على المكتوب والكتاب أيضاً .[٣]

وفي اصطلاح الشرع: «الإعلام بالشرع»[٤]

وكذلك: «إعلام اللّهِ تعالى أنبياءَه الشيء إمَّا بكتاب، أو برسالة، أو منام، أو إلهام»[٥]، أمَّا القرآن الكريم قد وظّف السياق لإخراج هذه المعاني وتحديد دلالة الوحي في مواضع ورودها فيه:

فنجدها دالة على الأمر: نحو ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى﴾ [المَائِدَة : ١١١].

وعلى الإشارة ببعض الجوارح وبالكتابة، وقد حمل على ذلك قوله عن زكريا: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ [مَرْيَم : ١١]، أي أشار إليهم، وقد تكون الإشارة باليد والكتاب وبغير ذلك مما يفهم به عنه ما يريد.[٦]

الوسواس

﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأَنْعَام : ١١٢] فذلك الوسواس المشار إليه في قوله تعالى: ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾﴾ [النَّاس : ٤].

(١) ابن حجر، فتح الباري: ٣٣٨/٣.
(٢) المرجع السابق.
(٣) ابن منظور، لسان العرب (وحي): ٣٧٩/١٥، أبو البقاء، الكليات: ص: ٩٣٦.
(٤) ابن حجر، فتح الباري: ١٤/١-١٥.
(٥) القسطلاني: إرشاد الساري: ٦٨/١.
(٦) الطبري، جامع البيان، ص: ٣٠٥ سورة مريم آيّة: ١١.

الإعلام : وهو الإلقاء بالروع وهو خاصّ برسله وأنبيائه، وإن اختلفت أسباب الإعلام فيها:

﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ [الشُّورَى : ٥١].

وعلى التسخير نحو: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النَّحل : ٦٨].

والإلهام: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القَصَص : ٧]

وعلى الكلام المباشر: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ [النَّجم : ١٠] بلّغ الله عبده ما يشاء بواسطة جبريل عليه السلام.

الإرسال: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ﴾ [النِّسَاء : ١٦٣] .

الوسواس:»يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً»[١] فذلك الوسواس المشار إليه في قوله تعالى: ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤﴾ [النَّاس : ٤].

ونحن إذا لاحظنا السياق القرآني وجدنا لفظة (الوحي) ترجع إلى معنى الإلقاء، وهو المعنى اللُّغَوي لهذا اللفظ، وهذا الإلقاء قد يكون بالإشارة، أو العبارة، أو الإلهام، أو الوسوسة، أو الرؤيا المنامية.

أمَّا معاني الوحي في السُّنَّة النَّبَوِيّة فاستعملت لمعانٍ متعددة منها:

١- تباشير النبوة: عن عائشة أمّ المؤمنين -رضي الله عنها- أنها قالت: «أول ما بدئ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخَلاءُ وكان يخلو بغار حراء فيتحنَّثُ فيه، وهو التعبُّد الليالي ذوات العدد...»[٢] (والرؤيا الصالحة) وفي صحيح مسلم (الصادقة)، وهي التي لم يسلط عليه فيها ضغث ولا تلبس شيطان، وقال المهلب: هي تباشير النبوة لأنه لم يقع فيها ضغث فيتساوى مع الناس في ذلك، بل خصّ ﷺ بصدقها كلّها.[٣] وهي من جملة أقسام الوحي إذا كانت «مِنْ» تبعيضيَّة وهو محلّ اتفاق بين العلماء[٤]، ويحتمل أن تكون بيانيَّة وهو ما رجَّحه القزاز.[٥]

٢- صفة الوحي: جاء عند البخاري من حديث الحارث بن هشام: « سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ : « أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشدّه عليّ فيفصم عنّي وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول. قالت عائشة -رضي الله عنها-: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد

(١) الأنعام: ١١٢.

(٢) أخرجه البخاري -كتاب بدء الوحي، ٣/١، وكتاب التعبير- باب أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة: ٦٧/٨-٦٨.

(٣) العيني، عمدة القارئ، ١/ ٥٣.

(٤) العيني، عمدة القارئ، ١/ ٦٢، فتح الباري: ٣١/١.

(٥) هو محمد بن جعفر القيرواني أبو عبدالله التميمي صاحب الجامع في اللغة ت٤١٢هـ .

فيفصم عنه وإنَّ جبينه ليتفصد عرقاً».[١]

قال الحافظ ابن حجر: يحتمل السؤال عن صفة الوحي نفسه، ويحتمل أن يكون صفة حامله أو ما هو أعمّ من ذلك، لأنَّ الإتيان حقيقة من وصف حامله.[٢]

والوحي منحصر في الحالتين:

إما من صفة الوحي: كمجيئه كدوي النحل والنفث في الروع والإلهام والرؤيا الصالحة والتكليم ليلة الإسراء بلا واسطة.

وإما من صفة حامل الوحي: كمجيئه في صورته التي خلق عليها له ستمائة جناح ورؤيته على كرسي بين السماء والأرض وقد سدَّ الأفق[٣]، ولم يتعرَّض لصفتي الملك لندورهما، أو لم يأته في تلك الحالة بوحي، أو أتاه به فكان على مثل صلصلة الجرس، فإنه بين صفة الوحي لا حامله.

ودوي النحل لا يعارضه صلصلة الجرس، لأنَّ سماع الدوي بالنسبة للحاضرين والصلصلة بالنسبة إلى النَّبِيّ ﷺ.

وأما النفث في الرُّوع فيحتمل أن يرجع إلى إحدى الحالتين، فإذا أتاه الملَك في مثل صلصلة الجرس نفث في رُوعه.

وأمَّا الإلهام فلم يقع السؤال عنه، لأنَّ السؤال وقع عن صفة الوحي الذي يأتي بحامل، وكذلك التكليم ليلة الإسراء.

وأمَّا الرؤيا الصالحة فلا ترد لأنَّ السؤال وقع عمَّا ينفرد به عن الناس لأنّ الرؤيا قد يشركه غيره، أو أن يكون السؤال وقع عمَّا في اليقظة[٤]، أو لكون حال المنام لا يخفى على السائل فاقتصر على ما يخفى عليه.

و(السياق) يشعر بأنَّ المراد صفه حامله لإتيانه بصيغة المستقبل دون الماضي.

٣- الموحى[٥] وهو كلام الله المنزل على النَّبِيّ ﷺ:

وقد جاء التعبير عنه بأكثر من حديث منها الحديث السابق في بدء الوحي (وفَتَرَ الوَحْيُ) وفتور الوحي عبارة عن تأخره مدة من الزمان، وكان ذلك ليذهب ما كان ﷺ وجدّه من الرُّوع وليحصل له التشوف على العود. واختلف العلماء في مدَّة فتور الوحي؛ فمن قال إنها ثلاث سنين، وسنتان ونصف، وثلاث عشرة، والصحيح أن مدة الفتور كانت أياماً كما جاء في حديث ابن عباس «مكث أياما...»[٦].

وحديث النواس بن سمعان عند الطبراني مرفوعاً: «إذا تكلم الله بالوحي أخذت السماء رجفة شديدة من خوف الله، فإذا سمِع بذلك

(١) أخرجه البخاري _ كتاب بدء الوحي -١/٢-٣ .
(٢) ابن حجر، فتح الباري: ٢٦/١ وانظر أيضاً: القسطلاني، إرشاد الساري، ١٤٤/٧، العيني، عمدة القاري: ١/ ٤٣.
(٣) العيني، عمدة القارئ، ٤٠/١، ابن حجر، فتح الباري: ٢٧/١.
(٤) العيني، عمدة القارئ: ١/ ٤٤.
(٥) ابن حجر، فتح الباري: ١٥/١.
(٦) ابن حجر، فتح الباري: ٣٧٦/١٢-٣٧٧.

أهل السماء صُعِقُوا وخرُّوا سُجدا، فيكون أولهم يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، فينتهي به على الملائكة، كُلّما مَرَّ بسماءٍ سألهُ أهلها: ماذا قال ربنا؟ قال الحقّ، فينتهي حيث أُمِرَ».(١)

وعند الترمذي من حديث ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ : «إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا فيصعقون، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل، حتى إذا جاءهم فُزِّع عن قُلُوبِهِم قال: فيقولون: يا جبريل ماذا قال ربُّك؟ فيقول: الحق فينادون الحقَّ الحقَّ.»(٢)

ووحي القرآن الذي وقع للرسول على أقسام ثلاثة:

القسم الأول: بإلقاء المعنى في القلب أو النفث في الرُّوع أو الرؤيا الصادقة، ففي الحديث: « إنَّ روح القدس نفث في رُوعي أنَّ نفساً لن تموتَ حتى تستكملَ رزقَها إلا فاتقوا الله وأجملوا في الطلب»(٣) ونفث بمعنى أوحى وألقى.(٤)

والقسم الثاني: الوحي المشافهة يقظَةً ومناماً، فوقع حال اليقظة ليلة الإسراء «.. فأوحى الله إليَّ ما أوحى ففرض عليَّ خمسين صلاةً في كل يوم وليلة..»(٥)، أما مناماً فجاء عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن النَّبِيّ ﷺ قال: «أتاني ربي الليلة في أحسن صورة -أحسبه يعني في النوم فقال: يا محمد هل تدري فيمَ يختصم الملأ الأعلى...».(٦)

والقسم الثالث بواسطة أمين الوحي جبريل(٧)؛ فإمّا أن يأتيه بصورته الملائكيَّة، أو في صورة رجل ففي الحديث: «أتاني جبريل فأمرني أن آمر أصحابي أن يرفعوا أصواتهم بالإهلال أو التلبية»(٨) وعن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أنه قال:»بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر.. وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان والنَّبِيّ يجيبه، فلما أدبر قال: « هذا جبريل أتاكم يعلّمكم دينكم».(٩)

---

(١) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد: ٢١٣/٧ رقم (١١٢٨٨)، وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات، وأورده الحافظ ابن حجر في الفتح (٤٩٧/٩ عند الحديث (٤٨٠٠)، وسكت عنه، وأصله في الصحيح بغير هذا اللفظ.

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه- كتاب التفسير باب من سورة سبأ، ص: ٨٩٤ رقم (٣٢٣٧).

(٣) رواه البغوي في شرح السُّنَّة -كتاب الرقائق -باب التوكل على الله (٣٠٤/١٤) حديث رقم (٤١١٢).

(٤) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: (٢٣٣/٢) .

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه -كتاب الإيمان -باب الاسراء برسول الله ﷺ وفرض الصلوات، ص: ٨٨ حديث رقم (١٦٢).

(٦) أخرجه أحمد في مسنده: (٤٥٨/٣) حديث رقم (٣٤٨٤).

(٧) الصالح، صبحي، مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٥.

(٨) أخرجه أبو داوود في سننه- كتاب المناسك - باب كيفيَّة التلبية، ص: (٢٨٣) حديث رقم (١٨١٤).

(٩) متفق عليه، أخرجه البخاري -كتاب: الإيمان -باب: سؤال جبريل النَّبِيّ ﷺ ، ١/ ١٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان- باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان، ص(٣٢) حديث رقم(٩).

٤- الوحي بالسُّنَّة: ما جاء عند مسلم عن معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنهما- أنه قال: خرج رسول الله ﷺ على حلقة من أصحابه فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومَنَّ به علينا، قال: آلله ما أجلسكم إلا ذاك « قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك قال: «أما إني لم أستحلفكم تهمةً لكم، ولكنَّه أتاني جبريل فأخبرني أن الله -عز وجلَّ- يباهي بكم الملائكة»[١] ، ومن ذلك ما رواه أبو سعيد الخدريّ أن رسول الله ﷺ صلَّى في نعاله فصلى الناس في نعالهم، ثم ألقى نعليه فألقى الناس نعالهم وهم في الصلاة، فلما قضى صلاته قال: «ما حملكم على إلقاء نعالكم في الصلاة؟» قالوا: يا رسول الله رأيناك فعلت ففعلنا، فقال: «إنَّ جبريل أخبرني أن فيها أذًى، فإذا أتى أحدُكم المسجدَ فلينظر فإنْ رأى في نعليه أذًى فليخلعهما وإلا فليصلِّ فيهما.»[٢]

وفي ختام هذا البحث يمكننا أن نبيّن أهمّ النتائج التي توصلت لها الدراسة:

- يُعَدُّ السياق محوراً رئيساً في كشف دلالة الألفاظ وتحديد معانيها، وهو جُنَّة من الوقوع في الخطأ ودليل إلى الفقه الصحيح.

- قرينة السياق قرينة من القرائن التي تحدد دلالة اللفظ الْمُشْتَرَك، وذلك أنَّ الْمُشْتَرَك اللَّفْظِيّ يأتي حاملاً في طيَّاته معنيَينِ فأكثر بأحوالٍ مختلفة، ولكن المقصود من تلك المعاني هو معنى واحد تحدّده القرينة السياقيَّة.

- في بعض المواضع تتضافر القرينة اللَّفْظِيَّة والقرينة الحاليَّة لكشف دلالات الْمُشْتَرَكات اللَّفْظِيَّة.

- البحث الدلالي في الحديث النَّبَوِيّ موضوع غنيّ متجدّد لا تنتهي فوائده ومعارفه.

* * *

(١) أخرجه مسلم -كتاب: الذكر والدعاء والتوبة -ص: (١١٦٦) حديث رقم (٢٧٠١).

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى-كتاب: الصلاة -أبواب المواقيت، (٣/ ٣٩٢) حديث رقم (٤١١٨).

المراجع

١- إبراهيم، د. هتيمي أحمد، بدوي د. سامي عواد، الشكّ من الراوي وأثره في التعليل «دراسة تطبيقيَّة في علل الدارقطنيّ» بحث منشور، عدد ٥٧، مجلة البحوث والدراسات الإسلاميَّة.

٢- مقدمة في أصول التفسير، ت: د. عدنان زرزور، ط٢، ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م.

٣- النهاية في غريب الحديث، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي -الطناحي-محمود حمد، ط١، ١٣٨٣هـ-١٩٦٣م، الناشر الحلبي.

٤- ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني، نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، ت: د. نور الدين عتر، ط٢، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م، دمشق، دار الخير.

- فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: محب الدين الخطيب، ترقيم: محمد فؤاد عبدالباقي، مراجعة قصي محب الدين الخطيب، ط٢، ١٤٠٠هـ، القاهرة، دار المطبعة السلفيَّة.

٥- ابن دقيق العيد، إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، تحقيق: مصطفى شيخ مصطفى ومدثر سندس، ط١، ٢٠٠٥م، بيروت، مؤسسة الرسالة.

٦- ابن الصلاح، أبو عمرو عثمان بن عبدالرحمن الشهرزوريّ، علوم الحديث (مقدمة ابن الصلاح)، ت: نور الدين عتر، ط١٣٩٧هـ-١٩٧٧م، بيروت، دار الفكر المعاصر.

٧- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط عبدالسلام محمد هارون، ط١٣٩٩هـ-١٩٧٩م، دار الفكر.

٨- ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم، لسان العرب،، ط١٤١٠هـ- ١٩٩٠م، دار صادر، بيروت.

٩- ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين، بدائع الفوائد، دار الكتاب العربيّ، بيروت.

١٠- الآمديّ، أبو الحسن علي بن محمد، الإحكام في أصول الأحكام، دار الحديث.

١١- البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن بردزبه، صحيح البخاري، ١٩٨١م، استنبول. تركيا، المكتبة الإسلاميَّة.

١٢- العيني، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، المسمى بالعيني على البخاري، دار الفكر.

١٣- البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، شرح السُّنَّة، تحقيق: شعيب أرناؤوط -زهير الشاويش، ط٢، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، المكتب الإسلامي.

١٤- البكريّ، حمزة محمد وسيم، تعدُّد الحادثة في روايات الحديث النَّبَوِيّ دراسة تأصيليَّة نقديَّة، طبعة خاصة بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميَّة، قطر، أروقة للدراسات

والنشر، عمان. الأردنّ.

١٥-البيهقيّ، أبوبكر أحمد بن الحسين بن علي، السنن الكبرى، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، ط١، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م، بيروت، دار الكتب العلميَّة.

١٦-الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة، سنن الترمذي(الجامع الكبير)، تحقيق: بشار عواد معروف، ١٩٩٦م، بيروت، دار الغرب الإسلامي.

١٧-التهانوي، محمد بن علي، موسوعة كشَّاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ط١٩٧٧، الهيئة المصريَّة للكتاب.

١٨- الجُرْجَانيّ، أبوبكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: محمد رشيد رضا، ١٣٨١هـ-١٩٦١م، مصر، مكتبة القاهرة.

١٩-الجُرْجَانيّ، على بن محمد بن على الشريف، التعريفات، ط١، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، بيروت، دار الكتب العلميَّة.

٢٠- الجنابي، سيروان عبد الزهرة، عيدان، حيدر جبار، جدليَّة السياق والدلالة في اللغة العربيَّة النَّصّ القرآني أنموذجاً، العدد التاسع، ٢٠٠٨، مجلة دراسات الكوفة.

٢١-الحجاج، مسلم، صحيح مسلم، ت: محمد فؤاد عبدالباقي، ١٣٧٤هـ-١٩٥٤م، دار إحياء التراث العربيّ.

٢٢- حمادي، إدريس، الخطاب الشرعيّ وطرق استثماره، ١٩٩٤بيروت، المركز الثقافيّ.

٢٣- الرحيليّ، د. عبدالله بن ضيف الله، منهجيَّة فقه السُّنَّة النَّبَوِيّة قواعد ومنطلقات نظريَّة وأمثلة تطبيقيَّة، ط١: ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

٢٤-الزمخشريّ، أبو القاسم محمد بن عمرو بن أحمد، الفائق في غريب الحديث والأثر، (د. ت) بيروت، دار إحياء التراث العربيّ.

٢٥-الزرقانيّ، محمد عبدالعظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، ط٣، مطبعة عيسى البابيّ الحلبيّ وشركاه.

٢٦-السخاويّ، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبدالرحمن بن محمد، فتح المغيث بشرح ألفيَّة الحديث، تحقيق: علي حسين على، ط١، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، مصر، مكتبة السُّنَّة.

٢٧- السلميّ، أبو محمد عزالدين عبدالعزيز بن عبدالسلام، الإمام في بيان أدلَّة الأحكام، دراسة وتحقيق رضوان مختار غريبه، ١٩٨٧م بيروت، دار البشائر الإسلاميَّة.

٢٨-سيبويه، أبو البشر عمرو بن عثمان بن قمبر، كتاب سيبويه، المحقق: عبدالسلام محمد هارون، ط٣، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، القاهرة، مكتبة الخانجي.

٢٩- الاقتراح في علم أصول النحو، تحقيق وتعليق أحمد محمد قاسم، ط١، مطبعة السعادة، القاهرة.

٣٠- صائمة، نازش، أثر السياق في الجمع

بين الروايات الحديثيَّة للموضوع الواحد، (٢٠١٩)بحث منشور على موقع .religion asianindexing.com.

٣١- الصالح، صبحي، مباحث في علوم القرآن، ط٢٤، ٢٠٠٠م، دار العلم للملايين.

٣٢- الطبريّ، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط١، مؤسسة الرسالة.

٣٣- عبد اللطيف، محمد حماسة، مدخل لدراسة المعنى النَّحْوي الدلاليّ، ط١، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، القاهرة.

٣٤- العراقيّ، أبو الفضل عبدالرحيم بن الحسين، فتح المغيث بشرح ألفيَّة الحديث، تحقيق: محمود ربيع، بيروت، عالم الكتب.

٣٥- عقيليّ، إبراهيم، تكامل المنهج المعرفيّ عند ابن تيميَّة، ط ١٤٠١هـ-١٩٨١م، المعهد العالي للفكر الإسلاميّ.

٣٦- عياض اليحصبيّ، أبو الفضل، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، تحقيق محمد أمين القرة، أسامة الرفاعيّ، جمال السيروان، نورالدين قرة علي، مكتبة الفارابي.

٣٧- العينيّ، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، المسمَّى بالعينيّ على البخاريّ، دار الفكر.

٣٨- فتحي، إبراهيم، معجم المصطلحات الأدبيَّة، ١٩٨٦م، صفاقس تونس التعاضديَّة العماليَّة، المؤسَّسة العربيَّة للناشرين المتحدين.

٣٩- الفراهيديّ، الخليل بن أحمد، كتاب العين مرتباً على حروف المعجم، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي ط١، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، بيروت، دار الكتب العلميَّة.

٤٠- الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، ط٢، ١٣٧١هـ-١٩٥٢م، مصر، مكتبة ومطبعة مصطفى البابيّ الحلبيّ وأولاده.

٤١- القسطلانيّ، أبو العباس أحمد بن محمد الشافعيّ، ارشاد الشاري لشرح صحيح البخاري، ضبطه وصححه: محمد عبد العزيز الخالدي، ط١ ١٤١٦هـ-١٩٩٦م، بيروت، دار الكتب العلميَّة.

٤٢- الكفاويين، د. منصور عبدالكريم، ظاهرة الركام اللُّغَويّ بين القدماء والمحدثين، تحقيق: عبدالقادر مرعي الخليل، ط١ ٢٠٠٧م جامعة مؤته (رسالة دكتوراه).

٤٣- الكفويّ، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسينيّ، الكليَّات معجم في المصطلحات والفروق اللُّغَويَّة، قابله على نسخة خطيَّة وأعدَّه للطباعة ووضع فهارسه د. عدنان درويش، محمد المصريّ، ط٢، ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م، بيروت، مؤسَّسة الرسالة.

٤٤- المازريّ، أبو عبدالله محمد بن علي بن عمر، المعلِم بفوائد مسلم، تحقيق: محمد الشاذلي النيفر، ط٢، ١٩٩٢، بيروت، دار الغرب الإسلاميّ.

٤٥- المودن، عبدالله، السياق: نظريَّة أصوليَّة فقهيَّة، أغسطس١٩٩٩ ربيع الثاني ١٤٢٠، السُّنَّة الثالثة، عدد٦، مجلَّة التجديد.

٤٦- النيسابوريّ، أبوعبدالله الحاكم محمد بن عبدالله، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، ط١، ١٤١١هـ-١٩٩٠م، بيروت، دار الكتب العلميَّة.

٤٧- النيسابوريّ، مسلم بن الحجاج القشيريّ، صحيح مسلم مع شرحه المسمَّى إكمال اكمال المعلم محمد بن خليفة الأبي وشرحه المسمى مُكَمّل إكْمَال الإكمال محمد بن محمد السنوسي، ط١: ١٤١٥هـ-١٩٩٤م، بيروت، دار الكتب العلميَّة.

٤٨- الهيثميّ، أبو الحسن علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد بتحرير الحافظين العراقيّ وابن حجر، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، بيروت، مؤسسة المعارف.

* * *